

دلائل الإعجاز

ونعلم أيُّ أحق منها بالتَّقدِيم وأسبقُ في استِجابِ التعطيم وجَدُّنا العِلمَ
أَوَّلاها بذلك وأَوَّلها هنالك إذ لا شَرَف إلا وهو السَّبيلُ إليه ولا خِيرَ إلا وهو
الدَّليلُ عليه ولا مَنقَبةَ إلا وهو ذُرُوتُها وسَنامُها ولا مَفْخَرَةَ إلا وبه مَحْضَتُها
وتَمَامُها ولا حِسنَةَ إلا وهو مِفتاحُها ولا مَحْمَدَةَ إلا ومنه يَتَّقدُّ مصباحُها .
وهو الوَفِيُّ إذا خانَ كلُّ صاحبٍ والثَّاقَّةُ إذا لم يُوثَقْ بِناصحٍ . لولاهُ لَمَّا بانَ
الإنسانُ من سائرِ الحيوانِ إلاَّ بتخطيطِ صُورتِهِ وهِئَةِ جِسمِهِ وبِغِنيَتِهِ لا ولا وَجَدَ إلى
اكتسابِ الفضلِ طريقاً ولا وَجَدَ بشيءٍ منَ المحاسنِ خليقاً .
ذاكَ لأنَّنا وإنْ كُنَّا لا نصلُّ إلى اكتسابِ فضيلةٍ إلا بالفعلِ وكانَ لا يكونُ فعلٌ إلا
بالقُدرةِ فإنَّنا لم نَرَ فعلاً زانَ فاعلَهُ وأوجبَ الفضلَ له حتى يكونَ عنِ العِلمِ
صَدْرُهُ وحَتَّى يتبيَّنَ مَيسَمُهُ عليه وأثرُهُ . ولم نَرَ قَدرةً قطُّ أكسَبتْ
صاحبَها مَجداً وأفادتْهُ حَمداً دونَ أن يكونَ العِلمُ رائدَها فيما تطلُّبُ وقائدها
حيثُ تَوَّمَّ وتذهبُ ويكونَ المصْرُوفَ لِعِنانِها والمقلِّبَ لها في مَيدانِها فهي إذاً
مفتقرةٌ في أن تكونَ فضيلةٌ إليه وعيالٌ في استحقاقِ هذا الاسمِ عليه وإذا هي خلتْ منَ
العِلمِ أو أبتْ أن تَمُتِلَ أمرَهُ وتَقْضِيَ رِسمَهُ آلتْ ولا شيءَ أحشدُ للذِّمِّ على
صاحبِها منها ولا شَيدَنَ أشَيدَنُ مِنِ إعمالِهِ لها .
فهذا في فضلِ العِلمِ لا تجدُ عاقلاً يُخالِفُك فيه ولا تَرى أحداً يَدفَعُهُ أو يَندِفُهُ .
فأمَّا المُفاضلةُ بينَ بعضِهِ وبعضِ وتقدِيمُ فنَّ منه على فَنٍّ فإنَّكَ تَرى النَّاسَ فيه
على آراءٍ